الأثر الفكري والسياسي والعسكري في تداعيات الأحداث على القائد (الإمام الحسن المجتبى عليه السلام) أنموذجاً

أ.د.صاحب محمّد حسين نصّار& فارس فضيل عطيوي
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

الخلاصة:

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد الصادق الأمين ، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين .

وبعد ..

عند دراسة أي شخصيّة إنسانيّة – مهما كانت – ندرسها وفق الظروف المحيطة بها والمؤثرة في مسيرتها ، فكيف بكيان النُبل والخير والعطاء ألا وهو كيان أهل البيت (عليهم السلام) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

ومن المعلوم أن ظروفهم وحالاتهم كانت قاسيّة ومؤلمة ، وقد تمثّلت تلك الظروف بالقادة والسّاسة غير الشرعيين الذين جعلوا أهل البيت (عليهم السّلام) نصب أعينهم ؛ وما ذلك إلا لأنهم (عليهم السلام) يمثّلون المعارضة الشرعيّة الحقّة للباطل ، والصوت المدوّي الوحيد بوجه الحاكم الظالم المُسيطر على رقاب المسلمين الذي لا تأخذهم في الله لومة لائم .

ومن الطبيعي أن ينالوا من أولئك الظلمة شتى أنواع الجور والبطش والانتقام ، ومنهم الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الذي كان نصيبه من الظلم مؤلماً وغريباً ، وهذا ما يلفت النظر ويدعو النفس إلى الاستفهام ؟؟ !! .

إذ أنه عليه السلام عاش الأمرّين من الظلم ، ظلم المحسوبين عليه ، وظلم بني أميّة ، وهذا ما يستدعي دراسة تلك الظروف التي أحاطت به دراسة مركّزة ؛ لكشف المستور ، ورفع الظلامة ، لعلّ الله تعالى يكتبنا ممن يرى الحق ويرفع الظلم عن السبط المظلوم حتى في دفنه .

وسوف يكون البحث والدراسة عن تلك الظروف وتأثيرها ضمن محاور ثلاث لبيان ذلك الواقع ، وملابسات تلك الظروف حسب الأهميّة والأثر ، وكما يأتي :

أوّلاً : تداعيات الأثر الفكري على قيادة الإمام الحسن عليه السلام

إن رياح التغيير الفكري من أخطر الهجمات التي توجّه إلى الفرد المسلم فيما إذا كانت ذا تأثير سلبي معاكس ، ومن هنا فقد ركزّت السلطة الأمويّة – وقبل كلّ شيء – على بثّ السموم الفكريّة بين المسلمين ، وخاصّة الذين لم يرتكز الايمان والعقيدة الحقّة في نفوسهم .

فأشاعوا بينهم أن الإمام الحسن عليه السلام رجل كسول لا يعرف من الدنيا إلا النساء ، ولا يقوى على قيادة الرجال ، ومن العلم إلا القش في قبال السموم المعاديّة التي تصف معاوية بن أبي سفيان برجل المرحلة ، وداهية العرب والعجم ، والذي كان يصلّي صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء ! في مقابل علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يقرب الصلاة في حالة السكر ، وفي بعض الروايات : أن علياً عليه السلام كان يعرف عند أهل الشام بقاطع الصلاة أو الذي لا يصلي .

وقد أُبتُلي الإمام الحسن عليه السلام كما أُبتلي جدّه وأبوه (صلوات الله عليهم) بالذين لم يعتنقوا الإسلام حقيقة ، ولم يصلوا إلى درجة الإيمان .

ثانياً : تداعيات الأثر السياسي على قيادة الإمام الحسن عليه السلام

أن الإرهاصات السياسيّة التي أحاطت بالإمام الحسن عليه السلام كانت كفيلة بإيجاد تأثيرات معاكسة لإرادته عليه السلام ، ولعلّ أبرزها إرهاصات مدينة الكوفة التي تُعتبر آنذاك واحدة من المدن التي جمعت مختلف الطوائف والقبائل والشرائح التي كانت تختلف من حيث المبدأ والاعتقاد ، وهذا ما يبدوا واضحاً أبان خلافة الإمام علي عليه السلام من وجود المنافقين والمارقين والفاسقين وبعض اليهود في الكوفة وغيرهم .

أن هذه الرواسب بقيت بعد شهادة إمام المتقين عليه السلام ، وتبلورت بصورة أكثر فاعليّة مع وجود المساعد لها المتمثّل بالسلطة الأموية التي استغلت كل ما يمكنها فعله للإطاحة بما يُهدد كيانها ويوقض عروشها .

ثالثاً : تداعيات الأثر العسكري على قيادة الإمام الحسن عليه السلام

إن دراسة طبيعة المجتمع الكوفي كانت من أولويات الإمام الحسن عليه السلام ؛ إذ نظر إلى هذا الخليط المتناقض ببصيرة نافذة فرأى الخور والتردد يمتلكان هذا المجتمع بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام ، فكان التمزّق الداخلي ، والتفرّق في فلسفة الحياة ، والتعثّر في المسيرة ، والتردد في الموقف من أبرز الظواهر الإجتماعيّة[1] .

فأدرك الإمام الحسن عليه السلام كراهيّة جيشه للحرب – فضلاً عن خيانة القائد العام للقوات المسلحة وجيش الإمام الحسن عليه السلام ألا وهو المتخاذل عبيد الله بن العباس لمّا أغراه معاوية بالمال والجاه فتقرّق

هو وجيشه قبل الفجر – وميله إلى الدعة والسلم ، وأبصر وراءه معاوية الأموي يستخلص ولاء القادة ، ويبتاع ضمائر الزعماء ، ويمنّي بالمناصب المهمّة ، ويلوّح بالوظائف القياديّة ، ويهدد بالإبادة البشريّة للمعارضين له .

كل هذه التداعيات جعلت من الموقف العسكري له الأثر الكبير في انكسار شوكة جيش الإمام المجتبى عليه السلام الذي يمثّل الجناح العسكري للإمام عليه السلام ، وتعثّر مكوناته في مجابهة الجيش الأموي المارق .

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد الصادق الأمين ، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين .

وبعد ..

عند دراسة أي شخصيّة إنسانيّة – مهما كانت – ندرسها وفق الظروف المحيطة بها والمؤثرة في مسيرتها ، فكيف بكيان النُبل والخير والعطاء ألا وهو كيان أهل البيت (عليهم السلام) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

ومن المعلوم أن ظروفهم والأيام التي مروّا بها كانت قاسيّة ومؤلمة ، وقد تمثّلت تلك الظروف بالقادة والسّاسة غير الشرعيين الذين جعلوا أهل البيت (عليهم السّلام) نصب أعينهم ؛ وما ذلك إلا لأنهم (عليهم السلام) يمثّلون المعارضة الشرعيّة الحقّة للباطل ، والصوت المدوّي الوحيد بوجه الحاكم الظالم المُسيطر على رقاب المسلمين الذي لا تأخذهم في الله لومة لائم .

ومن الطبيعي أن ينالوا من أولئك الظلمة شتى أنواع الجور والبطش والانتقام ، منهم الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الذي كان نصيبه من الظلم مؤلماً وغريباً ، وهذا ما يلفت النظر ويدعو النفس إلى الاستفهام ؟؟ !! .

إذ أنه عليه السلام عاش الأمرّين من الظلم ، ظلم المحسوبين عليه ، وظلم بني أميّة ، وهذا ما يستدعي دراسة تلك الظروف التي أحاطت به دراسة مركّزة ؛ لكشف حقيقة ذلك ، ورفع الظلامة ، لعلّ الله تعالى يكتبنا ممن يرى الحق ويرفع الظلم عن السبط المظلوم حتى في دفنه .

وينتظم البحث والدراسة عن تلك الظروف وتأثيرها ضمن مطالب ثلاثة لبيان ذلك الواقع ، وملابسات تلك الظروف حسب الأهميّة والأثر ، وكما يأتي :

المطلب الأوّل : حيث تناول أهم التداعيات الفكريّة التي أسهمت بشكل كبير في إلقاء تأثير واضح على المناخ الفكري عند عامة المسلمين وعند أصحاب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام .

المطلب الثاني : تناول أهم الظروف السياسيّة الخارجيّة والداخليّة منها ومدى تأثيرها على حركة الإمام عليه السلام القياديّة .

المطلب الثالث : حيث تناول أهم الظروف العسكرية التي أسهمت بشكل كبير في تدوير رحى الحرب إلى الهدنة الحسنيّة ، التي في مقدمتها خيانة كبار قادة الجيش ، وانكفاف العدد الكبير من الجيش عن القتال .

خاتماً هذا البحث الموجز بأهم النتائج التي توصل إليها البحث وأفرزتها الدراسة .

المطلب الأوّل : تداعيات الأثر الفكري على قيادة الإمام الحسن عليه السلام

إذا ما أردنا تسليط الضوء على قضية التأثير الفكري بشكل عام ومدى تأثيرها على عقول البعض سيما البسطاء منهم ، يلاحظ أن موضوع هذه القضيّة يتبنى أصحاب النفوس الضعيفة والخبيثة والمريضة دون غيرهم من صحاح النفوس الذين لا تنطوي عليهم خدعة الطلاء الفكري الزائف ؛ إذ أن الغرض من ذلك شحن تلك العقول بما يروق ويخدم مصالح الغير .

ومن هنا استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يشنّ حرباً ذا تأثير فكري سلبي على السّذج من الناس في صراعه مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ؛ لإخضاع العديد من ضعاف النفوس في سبيل ما يصبو إليه ملتمساً بذلك عدّة طرق وأساليب متسلسلة ، وكما يأتي :

أوّلاً : إدعاء صحبة النبي(صلى الله عليه وآله) ومن كتّاب الوحي

لقد حفل تاريخ المسلمين في كثير من المواطن والمواضع بأن معاوية الأموي كان صحابياً من صحابة رسول الله(صلى الله عليه وآله)[٢] ، بل وأكثر من ذلك فقد جعلوا منه كاتب الوحي الإلهي المُنزل على النبي(صلى الله عليه وآله)[٣] .

بيد أن هذا الصحابي لم يصحب بشيء ، وكاتب الوحي الإلهي لم يكتب بحرف[٤] ، وبهذا استحق عندهم أن يكون إماماً عادلاً ! .

وفي الحقيقة أن هذه العملية ما هي إلا أرضيّة صنعها معاوية إيذاناً لما يقوم به ، وتشريعاً وتبريراً لسلوكه العدائي ؛ لكي تكون النتيجة أن كل ما يقوم به معاوية صاحب النبي(صلى الله عليه وآله) وكاتب الوحي مقبول ولا نقاش فيه .

ثانياً : فضائل معاوية ومعجزاته ودهاؤه

بعدما استطاع معاوية أن يجعل من نفسه صحابياً جليلاً ! وكاتباً للوحي أميناً على السّذج من الناس والمرتزقة منهم ! فإنه بذلك هيّأ المناخ الرحب لقبول الأخرى ألا وهي أن لهذا الصحابي الجليل وكاتب الوحي الأمين فضائل لا تعدّ ولا تُحصى !

ومن تلك الفضائل التي اختص بها هذا الصحابي أنه كان أحد العشرة المبشرين بالجنة !! حيث ورد عندهم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ((يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلع معاوية ، ثمّ قال من الغد : يطلع عليكم رجل من أهل الجنّة ، فطلع معاوية ، ثمّ قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية))[٥] .

فإن معاوية لم يكن باستطاعته أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة ! بعدما عُرف بالخمرة والنبيد إلا بعد أن يكون صحابياً جليلاً وليس هذا فحسب بل كاتباً للوحي الإلهي .

ومن الغريب أن أصحاب التاريخ يعتبرون معاوية من دهاة العرب وجحفل السياسة في تأمره على الناس ، وقد أورد المسعودي في مروجه ما يُشير إلى ذلك : ((وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلًا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي ، أُخذت مني بصفين ، فارتفع أمرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفي ، وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفي : أصلحك الله ! إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضي ، وأرسل على الكوفي بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع اليه ضعفه ، وبرّه ، وأحسن اليه ، وقال له : أبلغ علياً أني أُقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها ، وركنوا الى قول عمرو بن العاص : إن علياً هو الذي قتل عمَّار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته الى أن جعلوا لَعْنَ علي سُنَّة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير))[٦] .

وبهذا القدر فإنه استطاع أن يؤسس لفكر جديد يطلي به عقول ضعفاء العقول والنفوس الذين استجابوا لدعوة الخليفة الأموي في حفظ رسالة الإسلام ! .

ثالثاً : معاوية وشرف الخلافة

لقد تاقت نفس معاوية بن أبي سفيان بعدما أسس لنفسه مكانة عظيمة ومنقبة جليلة أن يكون خليفة الله تعالى في الأرض ، وقد أعلن ذلك رسمياً بعد شهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٧] .

أن هذه االدعوة لاقت قبولاً واسعاً عند بعض ضعاف النفوس سيما أهل الشام ، والمنافقين ومن أوغل الحقد في قلبه جرّاء ما صنعه سيف علي بن أبي طالب عليه السلام في دمائهم ودماء آبائهم الكفرة الفجرة استجابة لدعوة الرسول(صلى الله عليه وآله) الأكرم بقتالهم بعد ان لم تنفع معهم الدعوات السلميّة .

وحينها أصبح معاوية ممن لا يُرد له قول ولا دعاء ؛ فإن الخلافة منصب يدفع عن صاحبها كل سوء ولا يقبل قول قائل في ذمّ خليفة رسول الله في أرضه ولا الخروج عليه[٨] .

رابعاً : التأثير الفكري على أصحاب الإمام الحسن عليه السلام

بعدما طوى معاوية بن أبي سفيان تلك المراحل بنجاح كبير لماكر خادع جنح لتفريق وتمزيق من اجتمع حول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وذلك من خلال عدّة أمور ، وكما يأتي :

١ــ اشاعة ثقافة التقليل والتهميش والتنقيص من مقام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، والاستفادة من ذلك بضرب من تبقى مع الإمام الحسن عليه السلام من خلال دعوى : إذا كان أبوه كذلك فما حال الابن ؟ ! .

حيث ذكر التاريخ بأن علي بن أبي طالب عليه السلام كانت منزلته عند أهل الشام لصّاً من لصوص الفتن[٩] – استغفر الله – .

٢ــ اشترى معاوية ذمم العديد من قادة الجيش الذين كانوا مع الإمام المجتبى عليه السلام ، وعلى رأسهم عبيد الله بن العباس وهو قائد الجيش آنذاك[١٠] . وهذا لم يكن غريباً على معاوية فإن سياسته كانت تقوم على الرشوة وشراء الذمم[١١] .

٣ــ استغلّ معاوية عدم ايمان المسلمين بإسلامهم فكان يهدد بتصفية كل من يخالف أمره وعدم الانصياع إليه[١٢] ، وهذا المعنى نجده واضحاً في كلامه المشهور ((فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك ، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن له دخل في طاعتنا))[١٣] .

٤ــ قام معاوية بإغراق مناصريه بالمال والترف واللهو ، مما جعل من كان مع الإمام الحسن عليه السلام يحنّ لتلك الساعات اللهوية ممن لم يدخل الإيمان في قلبه ، فقد أورد الشيخ محمد مهدي شمس الدين في هذا الصدد : ((هذا مضافا إلى سياسة معاوية التي جعلت النخبة الحجازية من قريش وغيرها تغرق في الترف واللهو الذين جعلاها تحاذر من أي نشاط يعرض ترفها للزوال ولهوها للكدر ؟))[١٤] .

المطلب الثاني : تداعيات الأثر السياسي على قيادة الإمام الحسن عليه السلام

لقد خيّمت الأمور السياسية بظلالها على حركة الإمام الحسن عليه السلام مخلفة ورائها العديد من التأثيرات ، وقد اختلفت تلكم التأثيرات بحسب طبيعة الظروف الخارجيّة والداخليّة داعية الإمام المجتبى عليه السلام العدول عن موقف الحرب تجاه معاوية بن أبي سفيان ، وكما يأتي :

أوّلاً : الظروف الخارجيّة

لقد تمثّلت الظروف الخارجيّة بالامبراطورية الرومانيّة التي تتحين الفرصة للأخذ بالثأر من المسلمين ، فعند سماع الروم بأن جيش الإمام الحسن عليه السلام وجيش معاوية يستعدون للقتال ، جهزوا جيشاً عظيماً وتحركوا باتجاه البلاد الإسلامية . فهل كان على الإمام الحسن عليه السلام وهو المكلف بحفظ الإسلام إلا القبول بالهدنة لدفع هذا الخطر ؟ لهذا ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله لسدير: ((أمسك حتى أكفيك إن العلم، الذي وضع رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند علي عليه السلام من عرفه كان مؤمناً ومن جحده كان كافراً ثم كان من بعده الحسن عليه السلام قلت: كيف يكون بتلك المنزلة، وقد كان منه ما كان دفعها إلى معاوية؟ فقال: اسكت فإنه أعلم بما صنع، لولا ما صنع لكان أمر عظيم))[١٥] ، وقول الإمام الحسن عليه السلام : ((سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قُتل))[١٦] .

ثانياً : الظروف الداخلية

إذا ما أردنا قراءة تلك الظروف الداخلية التي أثّرت بشكل كبير ، وكما يأتي :

١ــ إن أصحاب الإمام الحسن عليه السلام الذين كانوا بالأمس أصحاب أبيه أمير المؤمنين عليه السلام والذين واجهوا الحروب وحملوا السلاح يوماً بعد يوم ، هؤلاء الأصحاب قد أصابهم نوع من التعب والملل من الحرب ، ومن الطبيعي أن لا يستطيع مثل هذا الجيش أن يكون فاتحاً منتصراً .

٢ــ كان جيش الإمام عليه السلام غير منظّم وغير منسجم ، فكان متكوناً من عناصر متضادة ، كل عنصر وفئة تسعى لأهدافها الخاصة ، هذه الأقسام هي :

أــ أصحاب الإمام علي عليه السلام وأصحاب الإمام المجتبى عليه السلام وكانوا مستعدين للحرب والتضحية .

ب ــ الخوارج ، وهم شاركوا جيش الإمام عداءً لمعاوية وليس حباً بالإمام الحسن عليه السلام . وفي الحقيقة كانوا مخالفين للإمام الحسن عليه السلام ومعاوية لكن عداوتهم لمعاوية أشد فانضموا إلى جيش الحسن عليه السلام .

جـ ــ أصحاب المكاسب والمصالح وطلّاب الدنيا ، شاركوا طلباً للربح والمنفعة ، وإذا رأوا أن مصالحهم مع الطرف الآخر مالوا إليه وحاربوا الإمام عليه السلام .

د ــ المترددين والذين لم يدخل الإيمان في نفوسهم والذين لم يعرفوا حقانية الإمام الحسن عليه السلام يقيناً . فمثل هؤلاء لا يُرجى منهم نفع ولا فائدة .

هـ ــ مشاركة بعض الناس بسبب اتباعهم رئيس عشيرتهم وقبيلتهم ، فإذا غيّر رئيسهم موقفه بسبب الطمع أو التهديد فإن هؤلاء أيضاً يغيّرون موقفهم .

فهل يستطيع مثل هذا الجيش غير المنسجم أن يحقق نصراً ويصل إلى أهدافه ؟ بالطبع لا . بل إن مثل هذه الحرب لا تعود إلا بقتل أصحاب الإمام الخلّص ليس لا أكثر[١٧] .

المطلب الثالث : تداعيات الأثر العسكري على قيادة الإمام الحسن عليه السلام

لم يكن الإمام المجتبى عليه السلام يخالف أبيه وجدّه المصطفى (عليهما السلام) في مقاتلة الناكثين والمارقين في سبيل إعلاء كلمة التوحيد وبقاء الإسلام كما أُريد له أن يكون فقد قام بالتعبئة العسكرية العامة وتهيئة ما يستطيع القيام به ، وتشجيعه وتنظيم الطاقات في الداخل للاستعداد لخوض الحرب ضد معاوية ومعسكر الشام. وخطب الإمام الحسن عليه السلام في الناس بهدف اطلاع الرأي العام الإسلامي على أبعاد القضية الراهنة وطرق علاجها[١٨] فاجتمع الناس حوله ، فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

((أما بعد: فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسمّاه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١٩] فلستم نائلين ما تحبون إلا الصبر على ما تكرهون، وبلغني أن معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرّك، لذلك اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون))[٢٠] .

أراد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة حث الناس على الجهاد وبعث فيهم الروح الجهادية واستنهاض طاقات جماهير الأمة للدفاع والجهاد ضد معاوية. وأين الأمة من مسؤولية الجهاد؟

كانت الصدمة الأولى التي وقعت في بدء مرحلة الإعداد والتعبئة أن حصل إحجام من جماهير الأمة عن تلبية نداء قيادتها ورغبتها في الخنوع والراحة والتالي التنصل من الواجب المقدس.. وإن هذا الموقف المتخاذل الذي اتخذته جماهير الكوفة بكافة سكانها من جميع الأقوام والأقليات من الإمام الحسن عليه السلام إنما يعبر في حقيقته عن الروح المتخاذلة البعيدة عن الجهاد ، وحب الراحة التي تعكس صورة الثقافة التخديرية الجامدة التي راجت وماجت في أوساط المجتمع الكوفي بعد أن خذل هذا المجتمع من قبل أمير المؤمنين عليه السلام وأكرهته على القبول بالمفاوضات مع معاوية في صفّين .

وفي الواقع أن مثل هذه الثقافة من الممكن أن تغزو أي مجتمع خاصة وأنها تنمي عند الإنسان رغبة الراحة وحب الاستقرار وربما تجد لها مبرراً في أداء بعض المسؤوليات الدينية غير المجهدة أو المتعبة.. كما أن الناس حينما تعشق ثقافة الجمود يدفعها ذلك لأن تقف إلى جانب ذلك القائد الذي لا يطلب منها مسؤولية التحرك، ولا يكلفها مهمة البذل والعطاء، ولا يدفعها للإيثار والتضحية وبالتالي لا يعكر صف وضعها المعيشي... ولذلك فإنّ مثل هذه الأمة تبحث وتتبنى الثقافة المخدرة الخاوية والخالية من المسؤوليات وتكتفي بتأدية الفرائض الاعتيادية والمسؤوليات البسيطة والتي لا تشكل خطورة عليها ولا تهدد مصالحها ورغباتها... .

وفي مثل هذه الحالة ، فإن البعض من الناس ترفض تبني الثقافة الجهادية بالدفاع عن الإسلام الداعية إلى الجهاد والتحرك والثورة ضد الواقع الفاسد، فتضع لنفسها التبريرات الواهية المستقاة من ثقافتها الجامدة فتعتبر التحرك الثوري تطرفاً، وأن الجهاد تهوراً وهكذا.

وهذا النمط من الثقافة ظهر وبوضوح في موقف الناس في الكوفة حينما دعا الإمام عليه السلام للتحرك والجهاد ضد معسكر الشام، حيث قابلت دعوة الإمام الحسن عليه السلام بالرفض ونكصت على عقبها وكأنما ألجمت أفواهها بالصمت معلنة عن تراجعها أمام قرار الحرب الذي اتخذه الإمام الحسن عليه السلام .

وأمام هذا الموقف المتخاذل قام عدي بن حاتم من طليعة أصحاب الإمام الحسن عليه السلام ليمزق طوق الصمت، مستنكراً من جواب الثلّة الانهزامية ، ومعرباً عن سخطه وقال : (أنا ابن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ، أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد فرّوا مراوغين كالثعالب أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها...)[٢١] .

نستوحي من كلمة عدي بن حاتم هذه أنه كان يوجه انتقاداً لاذعاً لتلك الفئة المتبنية للدعة والرحة والترف الفكري، والتي تتغذى على ثقافتها في زمن الهدوء والاستقرار، وتتخلى عن ثقافتها ــ كما يشير عدي في خطبته ــ في وقت الصراع والمواجهة... ثم اقترب عدي من الإمام الحسن عليه السلام وقال كلمات أعرب فيها عن استعداده للجهاد معه قائلاً: (أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفقك لما تحمد ورده وصدره ، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب أن يوافيني فليواف..)[٢٢] .

قال بعده قيس بن سعد، وقيس بن عبادة الأنصاري ، ومعقل بن قيس الرياحي ، وزياد بن صعصعة التميمي ، وقالوا بمثل ما قال عدي فأنّبوا الناس ولا موهم على الموقف المتخاذل الذي اتخذوه من الإمام الحسن عليه السلام ، ثم استحثوا الناس للجهاد ومقاومة المد الأموي ثم جاءوا للإمام عليه السلام وأعلنوا له عن استعدادهم لخوض الحرب معه، والإمام عليه السلام بدوره أعرب لهم عن ارتياحه من الموقف البطولي لصحابته فقال لهم : (صدقتم رحمكم الله ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة فجزاكم الله خيراً)[٢٣] .

ولكن الحال أن خوض الحرب بحاجة إلى جيش، وهذا لا يكون إلا بتجنيد أعداد كبيرة من الناس محاولاً استنهاضهم وتشجيعهم ثانية للالتحاق بجبهات الحرب فقام الإمام الحسن عليه السلام خطيباً وقال: ((معشر الناس : عفت الديار ، ومحيت الآثار ، وقلّ الاصطبار فلا قرار على همزات الشياطين وحكم الخائنين، الساعة والله صحّت البراهين وفصّلت الآيات ، وبانت المشكلات ، ولقد كنا

نتوقع تمام هذه الآية تأويلها ، قال الله عز وجلّ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(٢٤) .

فلقد مات والله جدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وقتل أبي عليه السلام وصاح الوسواس الخنّاس في قلوب الناس ، ونعق ناعق الفتنة ، وخالفتم السنّة ، فيا لها من فتنة صمّاء عمياء لا يسمع لداعيها ، ولا يجاب مناديها ، ولا يخالف واليها ، أظهرت كلمة النفاق ، وسيّرت رايات أهل الشقاق ، وتكالبت جيوش أهل العراق ، من الشام والعراق ، هلّموا رحمكم الله إلى الافتتاح ، والنور الوضّاح ، والعلم الجحجاح ، والنور الذي لا يطفئ ، والحق الذي لا يخفى .

أيها الناس : تيقظوا من رقدة الغفلة ومن تكاشف الظلمة، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، وتردى بالعظمة، لئن قام إليّ منكم عصبة بقلوب صافية وبنيّات مخلصة لا يكون فيها شوب نفاق ولا نية افتراق، لأجاهدن بالسيف قدماً ولأضيقنّ من السيوف جوانبها ومن الرماح أطرافها، ومن الخيل سنابكها فتكلموا رحمكم الله))(٢٥) .

بهذا الخطاب البليغ الذي تقشعر له الأبدان وتصدع له العقول والأذهان ، شرح الإمام الحسن عليه السلام خطورة الموقف ، فدعا الناس إلى تحمل المسؤوليات الملقاة على عواتقهم . إلا أنه عميت أبصار قلوبهم عن مناصرة الحق ومقارعة الباطل، فاختارت لنفسها حياة الذل وسنرى ــ فيما بعد ــ كيف أن هذا الموقف الجبان كلف أهالي الكوفة وقطاع كبير من الأمة ثمناً باهظاً ومأساة رهيبة ونتائج سلبية في غاية الخطورة بسبب ذلك الموقف .

ومع ذلك لم يستسلم الإمام عليه السلام بالرغم من موقف الأمة السلبي هذا من أن يبادر في الاستعداد والتجهيز لحربه ضد معاوية، مع المجموعة تلك التي خرجت للقتال معه، هذه المجموعة التي سنأتي على شرح تركيبتها وقوامها، والدوافع الأساسية التي اعتمد عليها الإمام الحسن عليه السلام في إدخال هذه المجموعة ساحة الصراع المصيري ضد معاوية .

وعلى الرغم بما قام به الإمام الحسن عليه السلام من تهيئة واستعداد واستنفار الطاقات العسكرية في سبيل المواجهة برزت عدّة مشاكل في سبيل هذه المواجهة ، وكما يأتي :

أوّلاً : خيانة قادة الجيش

إن خيانة قادة جيش الإمام الحسن عليه السلام كانت أحد الأمور التي اتجهت بالقضية نحو الهدنة ، وقد ذكر ابن أبي الحديد ما يُشير إلى ذلك حيث قال : ((فأما معاوية فإنه وافى حتى نزل قرية يقال لها الحيوضة بمسكن وأقبل عبيد الله بن العباس حتى نزل بإزائه فلما كان من غد وجه معاوية بخيل إلى عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردهم إلى معسكرهم فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله

ابن العباس أن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مُسلّم الأمر إليّ فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعا وإلا دخلت وأنت تابع ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر فأقبل عبيد الله إليه ليلا فدخل عسكر معاوية فوفى له بما وعده وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلي بهم فلم يخرج حتى أصبحوا فطلبوه فلم يجدوه ...))[٢٦] .

ثانياً : ضعف المحتوى العسكري

أنّ الظروف العسكرية لم تكن في صالح الحرب ؛ فاحتمال الانتصار العسكري كان أضعف الاحتمالين في مثل هذه الحالة ، ويمكن أن نستشف هذا المعنى من قول الإمام الحسن عليه السلام لسليمان بن صرد الخزاعي : ((فو الله لو سرنا إليهم بالجبال والشجر ما شككت أنّه سيظهر))[٢٧] ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنّ وقوع الهزيمة في معركة كهذه هو أقوى الاحتمالات، ويمكن أن يكون له تداعيات خطيرة وانعكاسات سلبية :

١ــ إنّ الهزيمة ستؤدي إلى تهديم البنية الداخلية التي شادها الإمام علي عليه السلام في الكوفة ، حيث أنّ ما قام به كان حصيلة جهد سنوات قليلة من الحكم، ولم تكن هذه السنوات سنيناً طبيعية إنّما كانت سنين حرب يحكمها اللااستقرار الاجتماعي ، فجهود في مثل هذه الظروف وفي مدة قصيرة مهما كانت كبيرة ، لا يمكن أن تكون منتجة لبنية واسعة الإطار، فجهوده عليه السلام كانت قد أنتجت ما يمكن أن تنتجه في مثل هذه الحالة، فخرج منها ثلة من الناس معدة بصورة جيدة .

فلو حصلت الهزيمة العسكرية لقضي على هذه الثلة ، التي كانت تتجمع في قوات الإمام الحسن عليه السلام .

هذا المعنى نجده في أكثر من كلام للإمام الحسن عليه السلام ، فعندما لامه سليمان بن صرد الخزاعي، خاطبه قائلاً :

((وأمّا قولك يا مذلّ المؤمنين ، فوالله لأن تذلوا وتعانوا أحبّ إليّ من أن تغروا وتقتلوا))[٢٨] ، ويوم خاطب حجر – وقد كان مريداً للحرب مع معاوية – : ((يا حجر لقد سمعت كلامك في مجلس معاوية، وليس كل الناس تحب ما تحب، ولا رأيه كرأيك، وإني لم أفعل ما فعلت إلا إبقاء عليكم))[٢٩] .

٢ــ إن الإمامين الحسن والحسين (عليهما السلام) وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على وفاة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كانا يمثلان المركز المحوري الذي يربط الأمّة بالدين ، وهذا لا يشكّ به أحد، فكلّ الشخصيات الأخرى من ناحية المؤهلات الذاتية لم تكن قادرة على أداء ما أدياه ، والهزيمة ستؤدي إلى القضاء عليهما معاً؛ لأنّ معاوية لا يتركهما إذا انتصر ، مما سيؤدي إلى ترك الأمّة بدون مركزية دينية قوية .

٣ــ إنّ خلّو الساحة لمعاوية – الأمر الذي سيصدر عن الحرب – يعني إبقاءه بدون رادع، ممّا يعني تعريض الإسلام من الناحيتين النظرية والتطبيقية لتحريف كامل ، في حين أنّ الهدنة قد أفسحت المجال أمام شخصيات تردع معاوية، حيث تصدى طيلة فترة حكمه وما بعدها أشخاص لسياسته وتصرفاته ؛ فقد تصدّى الإمام الحسن عليه السلام نفسه مراراً لسبّ الإمام علي عليه السلام وكذا حجر وعمرو بن الحمق الخزاعي وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر والأحنف بن قيس ، بل وموقف أهل الكوفة في عهدي المغيرة وزياد وكذلك البصرة في عهد الأخير وهو (زياد بن أبيه) ، أو موقف المدينة من تعيين يزيد خليفة، وثورة الإمام الحسين عليه السلام ، وثورة المختار، وحركة سليمان بن صرد وغيرها..

٤ــ كان هناك خطر خارجي كبير محدق على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية ، من جهة الرومان الذين كانوا ينوون شنّ هجومهم على البلاد الإسلامية ، فبالحرب ستضعف الدولة الإسلامية وينهار نظام الحكم فيها سواء انتصر الإمام الحسن عليه السلام أم لم ينتصر؛ هذا الأمر سيعطي الرومان حافزاً لأن يعيدوا الكرة على البلاد الإسلامية خصوصاً وأنّها تضم القدس الشريف وبقية البلدان التي عاش فيها السيد المسيح عليه السلام[٣٠] .

ثالثاً : محاولات اغتيال الإمام الحسن عليه السلام

ولم تقف محنة الإمام عليه السلام في جيشه إلى هذا الحدّ ، فقد أقدم المرتشون والخوارج على قتله ، وجرت ثلاث محاولات لاغتياله عليه السلام وسلم منها ، وهي كما يلي :

١ــ إنّه عليه السلام كان يصلّي فرماه شخص بسهم فلم يؤثّر شيئاً فيه .

٢ــ طعنه الجرّاح بن سنان في فخذه ، وقد ذكر الشيخ المفيد بهذا الشأن : ((إنّ الحسن أراد أن يمتحن أصحابه ليرى طاعتهم له وليكون على بصيرة من أمره ، فأمر أن ينادى بالصلاة جامعة ، فلمّا اجتمع الناس قام خطيباً فقال : أمّا بعد ، فإنّي والله لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة ، وأنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم ممّا تحبّون في الفرقة ، وأ نّي ناظر لكم خير من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري ، ولا تردّوا عليّ رأيي ، غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإيّاكم لما فيه المحبّة والرضا))[٣١] .

ونظر الناس بعضهم إلى بعض وهم يقولون ما ترونه يريد ؟ واندفع بعضهم يقول : والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر اليه ، فقالوا : كفر والله الرجل .

ثم شدّوا على فسطاطه وانتهبوه حتى أخذوا مصلاّه من تحته ، ثم شدَّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه فبقي جالساً متقلّداً السيف بغير رداء ، ثم دعا بفرسه

فركبه وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته ومنعوا منه من أراده ، فقال : ادعوا إليّ ربيعة وهمدان ، فدعوا فأطافوا به ودفعوا الناس عنه عليه السلام وسار ومعه شعوب من غيرهم ، فلمّا مرّ في مظالم ساباط بَدَرَ اليه رجل من بني أسد يقال له "الجراح بن سنان" فأخذ بلجام بغلته وبيده مغول وقال : الله أكبر أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل ، ثم طعنه في فخذه فشقّه حتّى بلغ العظم ، ثم اعتنقه الحسن عليه السلام وخرّا جميعاً إلى الأرض، فوثب اليه رجل من شيعة الحسن عليه السلام يقال له "عبدالله ابن خطل الطائي" فانتزع المغول من يده وخضخض به جوفه فأكبّ عليه آخر يقال له "ظبيان بن عمارة" فقطع أنفه فهلك من ذلك ، واُخذ آخر كان معه فقتل وحمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن ...[٣٢] . ٣ــ طُعِن بخنجر في أثناء الصلاة[٣٣] .

الخاتمة ونتائج البحث

من خلال ما تقدّم فإن النتائج التي أفرزها البحث ، وتوصل إليها ، هي مجموعة نقاط مهمّة وكما يأتي :

١ــ إن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام خليفة الله تعالى في أرضه ، فكلامه وفعله حجّة على جميع العباد ولا يجوز النقض عليه ، وهو ما أشار إليه النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) ((الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)) .

٢ــ استطاع معاوية أن يُغيّر المناخ الفكري عند أصحاب الإمام المجتبى عليه السلام فضلاً عن أصحابه ، وبالتالي الانقلاب والتباين والانشقاق في أصحابه عليهم السلام .

٣ــ أن الظروف السياسية لم تكن في صالح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، فالعدو الخارجي والداخلي كان متنكباً للإطاحة بالإسلام والمسلمين .

٤ــ الأوضاع العسكرية لجيش الإمام عليه السلام لم تكن من الإستعداد بمكان لقتال معاوية ؛ فخيانة كبار قادة الجيش وانكفاف العديد من المسلمين عن القتال كان سبباً واضحاً لعدم قدرة الجيش على القتال .

٥ــ لم يختلف الإمام الحسن عليه السلام في معاهدته بسبب تلك الظروف عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام حينما ترك نزاع الخلافة حفاظاً على الدين وكلمة الإسلام .

٦ــ قام الإمام المجتبى عليه السلام بحقن دماء المسلمين وشيعته والمحافظة عليهم من خطر الإبادة التي كان يسعى لها الإسلام الأموي .

٧ــ لقد هيأة الإمام المجتبى عليه السلام أصحابه وأنصاره لمعركة الطفّ الخالدة بقيادة الإمام الحسين عليه السلام .

٨ــ كانت إحدى نتائج المعاهدة التي أجراها الإمام المظلوم عليه السلام هو افتضاح الطرف المقابل المتستر باسم الدين والإسلام علناً أمام الحشود والألوف من الناس فضلاً عمّا كان موجوداً من منافقين في جيشه .

الهوامش

١) يُنظر : الإمام الحسن رائد التخطيط الرسالي "رؤية معاصرة في قيادته الاستراتيجية" ، الدكتور محمد حسين الصغير : ٨٤ .

(٢) ينظر : تاريخ الإسلام ، الذهبي ، تح : عمر عبد السلام تدمري ، الناشر : دار الكتاب العربي (بيروت – لبنان) ، ط١ ، ت : ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م : ٥١ / ١٢٠ .

(٣) ينظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، تح : أحمد عبد السلام ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ت : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م : ١ / ٥٥٥ .

(٤) ينظر : شرح منهاج الكرامة في معرفة الإمامة ، علي الحسيني الميلاني ، الناشر : مركز الحقائق الإسلاميّة – قم ، المطبعة : وفاء ، ط١ ، ت : ١٤٢٨ هـ : ٢ / ١٦٣ .

(٥) ينظر : تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر ، تح : علي شيري ، الناشر : دار الفكر (بيروت – لبنان) ، لا ط ، ت : ١٤١٥ هـ : ٥٩ / ١٠٠ ، وكذلك : ميزان الاعتدال ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: ٢ / ١٣٣ .

(٦) مروج الذهب ومعادن الجواهر ، المسعودي ، الناشر : دار الهجرة – إيران ، ط٢ ، ت : ١٤٠٤ هـ : ٣ / ٣١ .

(٧) ينظر : تاريخ الطبري : ٢ / ١٩ .

(٨) ينظر : فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية الإفتاء ، أحمد بن عبد الرزاق الدويش ، الرياض – المملكة العربية السعودية ، لا ط ، لا ت : ٤ / ٣٣٢ .

(٩) ينظر : مروج الذهب ، علي بن الحسين المسعودي : ٣ / ٣١ .

(١٠) ينظر : الارشاد ، الشيخ المفيد ، تح : مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث ، ط٣ ، ت : ١٤١٤ هـ : ٢ / ١٣ .

(١١) ينظر : في ظلال نهج البلاغة ، محمد جواد مغنية ، المطبعة : ستار – قم ، ط١ ، ت : ١٤٢٧ هـ : ٢ / ٧٦ .

(١٢) ينظر : في ظلال نهج البلاغة ، محمد جواد مغنية : ٣ / ٤٦٥ .

(١٣) الإمام علي بن أبي طالب ، أحمد الرحماني الهمداني ، الناشر : المنير للطباعة والنشر ، ط١ ، ت : ١٤١٧ هـ : ٦٩٦ .

(١٤) أنصار الحسين ، محمد مهدي شمس الدين ، الناشر : الدار الإسلامية ، ط٢ ، ١٤٠١ هـ : ٢١٦ .

(١٥) بحار الأنوار ، محمد باقر المجلسي : ٤٤ / ١ .

(١٦) المصدر نفسه : ٤٤ / ٢ .

(١٧) ينظر : شبهات وردود ، مؤسسة وموقع فدك ، بحث منشور على موقع المجلّة : http://www.fadak.org/rodood/index.htm .

(١٨) ينظر : الإمام الحسن ... القائد والأسوة ، الشيخ حسين سليمان : ١١٩ .

(١٩) الأنفال / ٤٦ .

(٢٠) أعيان الشيعة ، السيّد محسن الأمين : ١ / .

(٢١) مقاتل الطالبيين ، أبو الفرج الاصفهاني ، تح : كاظم المظفر ، المطبعة : الحيدريّة ، ط٢ ، ت : ١٩٦٥ م : ٣٩ .

(٢٢) جواهر التاريخ ، الشيخ علي الكوراني ، ط١ ، ت : ١٤٢٦ هـ : ٣ / ١٣ .

(٢٣) مستدركات علم الرجال ، الشيخ علي النمازي ، المطبعة : الحيدري ، ط١ ، ت : ١٤١٤ هـ : ٣ / ٤٤٦ .
(٢٤) آل عمران / ٤٤ .
(٢٥) الهداية الكبرى ، الحسين الخصيبي ، المطبعة : البلاغ (بيروت – لبنان) ، ط٤ : ت : ١٤١١ هـ : ٤١٥ .
(٢٦) شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد : ٤ / ١٥ .
(٢٧) الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة الدينوري ، تح : محمد طه الزبيدي : ١ / ١٤١ .
(٢٨) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن عليه السلام ، مصطفى الموسوي ، تح : مرتضى الرضوي ، دار المعلم للطباعة – طهران ، ط١ ، ت : ١٩٧٥ م : ٧١ .
(٢٩) مناقب آل أبي طالب ، ابن شهر أشوب ، المطبعة : الحيدرية – النجف الأشرف ، لا ط ، ت : ١٣٧٦ هـ : ٣ / ١٩٧ .
(٣٠) ينظر : مجلّة النبأ ، صلح الإمام الحسن ... الأهداف ... الأسباب ، عمار الكعبي ، العدد / ٦٤ ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م : ٩ .
(٣١) الإرشاد ، الشيخ المفيد : ١٩٠ .
(٣٢) ينظر : الارشاد : ١٩١ .
(٣٣) ينظر : أعلام الهداية ، الإمام الحسن المجتبى عليه السلام : ١١٧ .